{يهدي للتي هي أقوم}

عبد الرحمان السالمي

يضعنا الاضطراب العالمي الناجم عن التقدم التكنولوجي، وتردي أحوال البيئة، وتفاقم ظواهر الفقر، وازدياد التفاوت بين أجزاء العالم وقاراته – أمام مسؤوليات ضخمة ذات أبعاد أخلاقية بارزة. وقد شاع بعد الحرب العالمية الثانية مذهب سياسي مؤدَّاه أنه لا علاقة بين السياسة والأخلاق، باعتبار أن الأخلاقيات أيديولوجيات لا ترى الحقائق إلا بمناظير مقلوبة – وجاءت الحرب الباردة الطويلة الغاصة بمئات الحروب الصغيرة والكبيرة لصالح هذه الأيديولوجيا أو تلك لتؤيد ظاهراً ما يذهب إليه النفعيون والبراغماتيون من أن السياسية تبتغي المصلحة، بينما لا تخضع الأيديولوجيا (الأخلاقية) لمقاييس محددة! بيد أن هذا الفصل المتعمد بين الأخلاق والأيديولوجيا ما عاد وارداً الآن. فالتماس المصالح العامة أمر أخلاقي أيضاً، ولا تحدده الأيديولوجيا أو الأخطاء الثابتة؛ بل مدى إسهام هذه السياسة أو تلك في تحسين حياة البشر، وتحقيق استقرارهم وازدهارهم على المستوى المحلي وفي الأفق العالمي، وبهذا المعنى يصبح تدبير الشأن العام بما يصلحه غاية شريفة لا يوصل إليها إلا بالوسائل الشريفة والأخلاقية، فكما أن الأيديولوجيا لا تراود الأخلاق، فكذلك يأتي من الطرف الآخر أن الغايات لا تبرر الوسائل، بل الأحرى بالقول إن الوسائل غير الملائمة تؤدي في غالب الأحيان إلى عكس الغايات المرجوة منها. فقد قامت الأنظمة الشمولية لهدف معلن هو تحقيق الرفاه لبني البشر من الناحية الاقتصادية، لكن وسيلتها لذلك - بصرف النظر عن الصدق في الغاية – كان الإرغام ونفي الحريات باعتبارها ملهية عن تحقيق المبادئ. والذي نجم عن ذلك وقوع الظلم الأكبر بأولئك الذين يراد تحسين حياتهم وتحقيق رفاهيتهم، فكما ترتبط الأخلاق بالعقل الذي يستكشف المصالح ترتبط به أيضاً في تحديد الوسائل التي تتلاءم مع الغاية المتصلة بكرامة الإنسان وسمو إنسانيته: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (سورة لإسراء: 70)، وهكذا يقرر القرآن الكريم أن الله سبحانه زود الإنسان بثلاث كرامات أو أسباب للتفضيل الأخلاقي: كرامة العقل الذي تحدثت عنه آية سورة الإسراء، وكرامة اختيار الإيمان، وهو أسمى المبادئ الأخلاقية: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (سورة المنافقون 8)، وكرامة العمل الملتزم نتيجة الاستخلاف في الأرض (وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله المؤمنون) (سورة التوبة 105).

والإصغاء للأخلاق الهادفة لمصلحة الإنسان، والمؤسسة على كرامته، لا يبقى هناك شك في سلامة المقياس الذي تقوم عليه سائر الأفكار والتصرفات الأخلاقية، ويتحول هذا الأمر الفردي إلى مسألة جماعية واجتماعية عندما يجري استكماله بمبدأ العدل، والعدل عدل مع

النفس والأسرة والمجتمع القريب، وعدل في الأحكام والتصورات، وعدل في رؤية الآخر والعالم وطرائق التواصل معهما: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) (سورة النحل: 90)، و(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) (سورة النساء 58) و(لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى) (سورة المائدة 8).

وهكذا يكون العدل استقامة بين الفكر والعمل، وبين القول والتصرف، وبين المصلحتين الخاصة والعامة، وبين السريرة والعلانية، وبين الأقرباء والبعداء، وبين الأمة والعالم، واستناداً إلى هذه السمة من سمات الإيمان والتقوى والورع، تنبثق الأمة الشاهدة التي استقامت رؤيتها واستقام سلوكها فاستطاعت الاطلاع على الآفاق الشاسعة، والإسهام فيها بالأخلاق السامية والملتزمة: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (سورة آل عمران 110) (وَكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (سورة البقرة 143).

وسط هذا الاضطراب الكبير تأتي متوالية: العقل، والعدل، والأخلاق، لتغير الرؤية السائدة وتبرز الحاجة إلى أخلاق عالمية يلتقي على مقياسها بنو البشر على اختلاف الأديان والعقائد والمذاهب، ونحن نتطلع إلى هذا النور ونستشرفه بالورع والإيمان، أو لم يقل -جل وعلا- في كتابه الكريم: (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) (سورة الزخرف 44).